- ٢١ -
قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة فى أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها فى النفس ، والموعظة الخطابية تسرد سردًا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعى جميع ما يلقى فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة فى أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغى إليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، وقد أصبح أدب القصة اليوم فنًا خاصًا من فنون اللُّغة وآدابها ، والقصص الصادق يمثل هذا الدور فى الأسلوب العربى أقوى تمثيل ، ويصوِّره فى أبلغ صورة : قصص القرآن الكريم .

معنى القصص

القص : تتبع الأثر ، يقال : قصصتُ أثره : أى تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (١) أى رجعا يقصان الأثر الذى جاءا به ، وقال على لسان أم موسى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه ﴾ (٢) أى تتبعى أثره حتى تنظرى مَن يأخذه ، والقصص كذلك : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٤) والقصة : الأمر ، والخبر ، والشأن ، والحال .

وقصص القرآن : أخباره عن أحوال الأمم الماضية ، والنبوَّات السابقة ، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضى ، وتاريخ الأمم ، وذكر البلاد والديار ، وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه .

* * *

---

(١) الكهف : ٦٤
(٢) القصص : ١١
(٣) آل عمران : ٦٢
(٤) يوسف : ١١١

أنواع القصص فى القرآن

والقصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء : وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمُكَذِّبين ، كقصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم : كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وطالوت وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ : كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك .

* * *

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآنى فوائد نجمل أهمها فيما يأتى :

١ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التى بُعِثَ بها كل نبى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنُصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) هود : ١٢٠

٣ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

٥ - مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهُدى ، وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره فى النفس : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

* * *

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذى تكرر فى غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها فى القرآن ، وتُعرض فى صور مختلفة فى التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك ، ومن حكمة هذا :

١ - **بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها** : فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر ، وتُصاغ فى قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفسه معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى .

٢ - **قوة الإعجاز** : فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى .

٣ - **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها فى النفس** : فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام ، كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل

---

(١) آل عمران : ٩٣ (٢) يوسف : ١١١

الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تُكَرَّر فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها .

٤ - **اختلاف الغاية التى تُساق من أجلها القصة** : فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام ، وتُبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

* * *

القصة فى القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين فى مصر قدَّم رسالة لنيل درجة « الدكتوراة » كان موضوعها : « الفن القصصى فى القرآن » [١] أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية ، وكتب عنها أحد أعضاء اللَّجنة الذين اشتركوا فى مناقشة الرسالة - وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب ، ونُشِرَ فى مجلة « الرسالة » وقد تضمن التقرير نقداً لاذعًا لما كتبه الطالب الجامعى ، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه ، وصدَّر الأستاذ « أحمد أمين » تقريره بالعبارة الآتية :

« وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هى رسالة خطيرة ، أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ ، والواقع أن محمداً فنان بهذا المعنى » ، ثم قال : « وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها ، وإنى أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة ، توضح مرامى كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها » ثم أورد الأستاذ « أحمد أمين » أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة [٢] ، كادعاء صاحب الرسالة أن القصة فى القرآن لا تلتزم الصدق التاريخى ، وإنما تتجه كما يتجه الأديب فى تصوير الحادثة تصويراً فنيًا ، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا فى عد القصص القرآنى تاريخًا يُعتمد عليه . .

---

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله .

(٢) انظر نقد كتاب « الفن القصصى فى القرآن » - للأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن (ص٩٤) .

والمسلم الحق هو الذى يؤمن بأن القرآن كلام الله ، وأنه منزه عن ذلك التصوير الفنى الذى لا يعنى فيه بالواقع التاريخى ، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تُصاغ فى صور بديعة من الألفاظ المنتقاه ، والأساليب الرائعة .

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة فى الأدب ، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذى يعتمد على التصور ، وأنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها ، ورغبت النفس فيها ، واستمتعت بقراءتها ، ثم قاس القصص القرآنى على القصة الأدبية .

وليس القرآن كذلك ، فإنه تنزيل من عليم حكيم ، ولا يرد فى أخباره إلا ما يكون موافقًا للواقع ، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زورًا ويعدونه من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يلصق الزور بكلام ذى العزة والجلال ؟

والله تعالى هو الحق : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ ﴾ (١) .

وأرسل رسوله بالحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) .

﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِن رَبِّكُمْ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (٥) .

﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ (٦) .

وما قصَّه الله تعالى فى القرآن هو الحق : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (٧) .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ (٨) .

* * *

---

(١) الحج : ٦٢ (٢) فاطر : ٢٤ (٣) فاطر : ٣١
(٤) النساء : ١٧٠ (٥) المائدة : ٤٨ (٦) الرعد : ١
(٧) الكهف : ١٣ (٨) القصص : ٣

أثر القصص القرآنى فى التربية والتهذيب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر ، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل ، ويرتاد العقل عناصرها فيجنى من حقولها الأزاهير والثمار .

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة ، وإلى أمد قصير ، ولذا كان الأسلوب القصصى أجدى نفعًا ، وأكثر فائدة .

والمعهود - حتى فى حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية ، ويصغى إلى رواية القصة ، وتعى ذاكرته ما يُرْوَى له ، فيحاكيه ويقصه .

هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغى للمربين أن يفيدوا منها فى مجالات التعليم ، لا سيما التهذيب الدينى ، الذى هو لب التعليم ، وقوام التوجيه فيه .

وفى القصص القرآنى تربة خصبة تساعد المربين على النجاح فى مهمتهم ، وتمدهم بزاد تهذيبى ، من سيرة النبيين ، وأخبار الماضين وسُنَّة الله فى حياة المجتمعات ، وأحوال الأمم ، ولا تقول فى ذلك إلا حقًا وصدقًا .

ويستطيع المربى أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذى يلائم المستوى الفكرى للمتعلمين ، فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وقد نجحت مجموعة القصص الدينى للأستاذين « سيد قطب والسحار » فى تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحًا معدوم النظير ، كما قدَّم « الجارم » القصص القرآنى فى أسلوب أدبى بليغ أعلى مستوى ، وأكثر تحليلاً وعمقًا ، وحبَّذا لو نهج آخرون هذا النهج التربوى السديد .

* * *